هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة

في القرن السابع عشر أو بعده ؟

للأستاذ أديب عباسي

إذا كتب الأستاذ الكبير — العقاد — أطرف وأبدع ، فلا يسع القارىء الذي يصح أن نطلق عليه هذا الاسم إلا أن يقرأ ما كتب الأستاذ . وإذا قرأ له القارىء فلا يسعه إلا أن يقرأ مترفقاً مستأنياً ، فليس الأستاذ العقاد بالذي تستطيع أن تقرأ له على الطريقة الأميركية ، طريقة الخطف واللمح والقراءة بالأسطر والفقرات بدل القراءة بالجمل والكلمات . وليس ذلك لابهام في الرأي الذي يبسط الأستاذ أو التياث في الرأي الذي يشرح ، وإنما هو راجع إلى خصلة التركيز الشديد والعمق الصادق التي تتسم بها كل آثار العقاد . وإذا قرأ القارىء الحصيف ما يكتب الأستاذ العقاد هذا النوع من القراءة المتئدة المترفقة فالأرجح أن يخرج مما قرأ له على وفاق معه لا يشوبه تردد الابهام ولا شك المداورة . ذلك بأن الأستاذ ، في صميم ما يكتب ، لا يحاول أن يكتب ليفحم ، إنما يكتب ليفهم ، ويناقش ليقنع لا ليدهش . أقول هذا لمناسبة ما كتب الأستاذ في موضوعي « الحد الحاسم » و « النماذج والأفراد في الأدب » اللذين نشرا في عددي ٢٢٨ و ٢٢٩ من الرسالة . هذان المقالان يكادان يكونان نموذجاً لما تتصف به كتابات العقاد من العمق وسلامة المنطق وقوة التوجيه مع الشمول والاحاطة . ومن هنا بادرت أتهم نفسي بالتواء القصد عليها حينما رأيتني أخالف الأستاذ فيما ارتأى في ختام موضوعه الثاني فأرى هذا الرأي الذي أبسطه في بقية هذه الكلمة ، ولكنني برغم ما اتهمت نفسي وأعدت قراءة الموضوع لم أوفق إلى شيء يردني إلى رأي الأستاذ أو يوافق بين رأيه ذاك ، ورأيي الذي أبسطه هنا ليتكرم فيصلحه لي ، إن رآني مخطئاً ، أو يصلح رأيه إن رآني مصيباً

لخص الأستاذ في مقاله الأخير رأياً للأستاذ أدولف وولف في علاقة الديمقراطية والدين بظهور الخصائص المستقلة في الصور الأدبية بعد القرن السابع عشر فقال : « فمنذ أصبح الانسان فرداً ممزولاً في حكم الدين لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم ، هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والاحصاء والمراقبة ، ورسخت جذور الديمقراطية فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار »

وكان من هذه الفروع — كما يرى الأستاذ — ظهور الخصائص الفردية والسمات المميزة والفوارق القوية في الصور الأدبية الحديثة . هذه الخصائص والسمات والفوارق يجعلها الأستاذ وولف — كما لخصه لنا الأستاذ العقاد — رهناً بظهور التحليل النفسي الذي كان بدوره رهناً بشيوع الروح الديمقراطية والنظر إلى الفرد نظرة خاصة فاحصة ، فلا تغني معالم شخصيته ومظاهر سلوكه في غمار الجمهور والنماذج التقليدية المرسومة . إنما يؤثر الأستاذ العقاد ، في ختام موضوعه ، أن يرجع التحليل النفسي والديمقراطية معاً إلى شيء آخر « هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية »

هنا يسمح لنا الأستاذ العقاد أن نخالفه ويسمح لنا أن نسأل : أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشري عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إنني أشك في صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً

ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجاً من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الانسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة ، وأكوانها المبثوثة في رحاب الكون وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية

وخلافها ؛ وهناك النبات والحيوان ؛ وهناك ما يسيطر على كل أولئك من قوانين خالدة وقوى منظمة . أفبعد كل هذه العوالم العجيبة نستطيع أن نقول : لقد انقضى عهد الكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو انتهى مجالها ؟ ! كلا ! والدليل القاطع هذه الكشوف الرائعة التى انتهى إليها الانسان فى سياحاته بين أجواز الفضاء ورحاب الكون أو فى حقائق الذرة ومعاقلها المنيعة . ومن يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للانسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت في القرن السابع عشر أو بعده ؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرد وغيرهم ؟ قد يقال هذه المغامرات منها ما جاء متأخراً ومنها ما لم يقع إلا فى أوائل هذا القرن ، ولكن هذا فى اعتقادى ليس بالشيء المهم ، فالتطورات الفكرية والنفسية العامة تحسب بالأجيال والقرون ، ولا تحسب بالأيام والشهور والسنين .

وقد يسأل الأستاذ العقاد : إذن بماذا نفسر ظهور الدراسات الباطنة ، وما تلاه من تأسيس علم النفس التحليلى الذى تهدّاه أدباء الأجيال الحديثة في كتابة القصة التحليلية ؟ وأجيب أن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فقد اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام ، وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكننا نعود ونقول : إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً . هذا وأحب أن أقرر هنا أن الدراسات النفسية لم تحد ولم تخرج عن حدود الحدس والتخمين وإيهام الفلسفة الذي قيدها من زمن أرسطو ، إلا حينما تابع رجالها أسلوب العلم الطبيعى فى المشاهدة والاختبار ، بل لقد استفادت الدراسات النفسية فائدة مباشرة مما كشفه البحث من العلاقة الوثيقة بين تركيب الجسم الفزيولوجى ومظاهر النشاط الفكرى والنفسى . ومن هنا كانت الدراسات النفسية باعتبار الزمن تابعة للدراسات الطبيعية مقلدة لها فى أسلوبها مستفيدة من حقائقها . ولقد بلغ من اعتماد علماء النفس اليوم على الطريقة العلمية فى البحث بحيث غدوا لا يؤمنون بأسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية Introspection ، وأضحى همهم أن يدرسوا النفس البشرية دراسة موضوعية مبنية على المشاهدة الظاهرة والاختبار المنظم

وجملة ما نريد أن نقرره هنا أن الكشوف والسياحات الخارجة لم تنته قط في القرن السابع عشر ، بل هى زادت واتسع نطاقها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبداءة هذا القرن إلى الحد الذى يكاد يكظ الأذهان ويتخم الفكر . وإذن ليس صحيحاً أنه جاء يوم انقطع فيه الإنسان الباحث المفكر عن الكشف الظاهر فتعين له مع ذلك الانقطاع أن يتصرف إلى السياحات الداخلية والكشوف النفسية . والصحيح أن الانسان الباحث تنبه إلى الكشوف الباطنة لما ارتفع مستوى البحث والتطلع واتسع نطاقه ومجاله حتى شمل كل موضوعات النظر والبحث وفيها صفات الإنسان النفسية والفكرية .

أديب عباسى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد